

قصة الخلاص

تترافق المسيحية مع الأديان والمعتقدات الأخرى في هذا العالم في كثير من الأمور، مثل مساعدة الفقير وعدم عمل الشر ومحبة الخالق وغيرها، إلا أن الدخول في الخصوصية يضع المسيحية على إفتراق، فتتفرد دون سواها لتقول: "الله أصبح إنساناً ليصبح الإنسان إلهاً".

هذا الإعلان الإلهي يحمل في طياته مشروعاً خلاصياً أعده الله للإنسان قبل إنشاء العالم، ليصبح كشبهه ويشاركه ملكوته، ولكن هذا الأمر لا يمكن إدراكه والولوج إليه إلا في الحب.

الله في المسيحية لم يبق في سماوته، بل أخلى ذاته ونزل إلى الأرض وأخذ صورة عبد واتحد بالإنسان إتحاداً كاملاً دون أن يفقد شيئاً من ألوهيته، بل على العكس تماماً، قدس الإنسان ورفعته إلى الإلهيات.

هذا التدبير الإلهي يتضح جلياً ويدخل من الباب العريض في بشارة الملاك جبرائيل لمريم العذراء، فيبدء العهد الجديد.

فلو نظرنا إلى أيقونة البشارة لرأينا السماء والأرض يتحاوران. الملاك من جهة والعذراء من جهة أخرى.

إنه إعلان سماويّ وبشارة ظفر، وها هو نشيد العيد يعبرّ عن ذلك خير تعبير: "اليوم رأس خلاصنا وإعلان السرّ الذي قبل الدهور، فإنّ ابن الله يصير ابن البتول وجبرائيل بالنعمة يبشّر.

تختار الكنيسة الأرثوذكسية في غروب عيد البشارة هذا نصوصاً من العهد القديم، تسلط الضوء على ما أعده الله للإنسان منذ القدم، فتقرأ مثلاً، **سَلِّمَ يَعْقُوبُ:** " وإِذَا سَلِّمَ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَهُوَ ذَا مَلَائِكَةَ اللَّهِ صَاعِدَةً وَنَازِلَةً عَلَيْهَا) تك:28)."

إنطلاقاً من هذه القراءة نجد في أيقونة البشارة جناحي الملاك جبرائيل يرتجفان من حركة النزول، ليرمزان إلى المكان الذي جاء المبشّر منه.

طبعاً، لا تتحصر الاحداث هنا بهذا الملاك فقط، بل نرى في احداث أخرى ملائكة من السماء يبشرون الرعاة، وملاك يتكلم مع يوسف، ونجم يقود المجوس. السماء إذاً كلها على الأرض، وهذا ما تعبر عنه بحق أيقونة الميلاد أي أيقونة التجسد الإلهي، فهي صفحة مفتوحة تربط السماء بالأرض، فنعي معها ما قاله الرب يسوع المسيح: " الحقّ الحقّ أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" (يو:1:51) وتأخذنا هذه الأحداث أيضاً لتذكّرنا بآية قالها الرب لإبراهيم ونسله: تتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض (تك:12:3).

وخير مفسر لهذه الآية هو بولس الرسول نفسه الذي عاش وتربى على آسفار العهد القديم ولكنه لم يدرك معناها الحقيقي إلا بعد ولادته الجديدة، أي بعد ما ظهر له السيد، فأعاد قراءة الآسفار الإلهية بكاملها من جديد، عندها وقف منذهاً أمام تجسد السيد وصلبه وقيامته، فأتى شارحاً لكلمة نسل ليقول في رسالته إلى أهل غلاطية: " اما المواعيد لا تقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين، بل كأنه عن واحد أي في نسلك الذي هو المسيح". والمقصود هنا بهذا التفسير أن الله المتجسد هو المبارك والمبارك، وبه أصبحنا جميعاً أبناءً لله.

وهنا يبقى السؤال مفتوحاً على مصراعيه في كل الأزمنة والأوقات: هل كل الشعوب مستعدة لعيش هذا التجسد الإلهي والدخول في سر هذا الخلاص العظيم؟ الإجابة على هذا السؤال يفرض علينا التعرف على الإنسان وفكره منذ القدم الا يومنا هذا.

فإذا رجعنا الوراء لبدأنا مثلاً بالفكر اليوناني الفلسفي والذي تأثيره ما زال واضحاً وجلياً في كثير من المعتقدات والحضارات. وتتلخص هذه الفلسفة في تسمية الإله إلهاً كونياً غير شخصي أي غير متشخص، وهو إله منزه متعالي، ومترفع عن شر الإنسان ودينسه، وهو بالتالي إله لا يشارك ولا يتشارك. وإن ارتفع البعض بالنسبة

إيهم ليلبغوا النشوة، فهم بالنهاية يذوبون في دائرة الكمال والجمال، ولا يعودوا
أشخاصاً قائمين بحد ذاتهم، بل تمحى كل خصوصية لهم.
وكثر التهجم على الايمان المسيحي منذ اللحظة الأولى للبشارة، فوقف الكثيرون من
حكماء وقادة وفلاسفة ومتقنين وجهال يشنون هجوماً واسعاً ومنظماً، فمنهم من
إستعمل ضدهم سلاح الحديد والنار ومنهم من إستعمل سلاح اللسان والكلمة، ومن
أبرز ما قالوه: هل يمكن لمن هو فوق في السماوات أن يأتي لمن هو تحت على
الأرض؟ وإن فعل، لا شك أن التغيير سيعتريه، فيتحول صلاحه إلى شر وكماله إلى
نقائص لا تحصى. تغيير كهذا لا يتناسب وطبيعة الله.
وهذا مرجعه أن اليونانيين والوثنيين لم يستطيعوا أن يقبلوا كيف أن الله المنزه عن كل
شر يستطيع أن يتحد بالمادة الساقطة على حسب قولهم ولا يتدنس.
وتعبيراً عن رفض التجسد الإلهي، أكملوا يؤكدون: "أنه لو إفترضنا أن بعض
اليونانيين كانوا بليدي الفهم بحيث يقولون إن الآلهة تسكن في التماثيل، تبقى هذه
المقولة أشرف من القول بأن الألوهية حلت في أحشاء امرأة عذراء وأصبحت
جنيئاً... فيا لهذه الأكذوبة الفظيعة.
هذا الكلام وإن يعود إلى القرون الأولى، فهو لا يعني بتاتا أن اليوم لم يعد موجوداً
وقائماً. كثير من الناس في وقتنا هذا يرفضون التجسد رفضاً تاماً، ويصبح بالتالي
عندهم موت المسيح على الصليب وقيامته أيضاً مرفوضاً.
وهذا طبعاً يتناقض مع مفهوم البشارة المسيحية تناقضاً كاملاً، فمن دون التجسد
والصلب والقيامة لا خلاص للبشرية بالنسبة للإيمان المسيحي، وماذا تريد المسيحية
من إله بقي في سماواته؟.
وإن عسر علينا بالمنطق البشري تحليل ذلك، يأتي حب الله اللامحدود للإنسان ليعطي
الجواب. فالتجسد الإلهي هو تعبير حب لعاشق أحب حتى الموت وما أراد شيئاً لنفسه.
نعم، هذا هو التنازل الإلهي. الله أصبح إنساناً وبقي في نفس الوقت إلهاً.

فإسم يسوع أو يشوع بحد ذاته يحمل معنى التدبير الخلاصي بمجمله، وهو يعني باللغة العبرية يهوى يخلص، أي الله يخلص.

ولا بد لنا هنا من إسترجاع الحوار الذي دار بين الله والنبي موسى عندما ظهر له الله في العليقة الغير محترقة عند جبل حوريب. فلما سأله النبي عن إسمه، أجابه الله قائلاً: " اكون من اكون "، أيّ أنا الكائن. وهذا يؤكد أن الله لا إسم له يحده كسائر البشر، فلا شيء يعادله ولا أحد يشابهه، وكيثونته هي من ذاته فقط.

وهذا بالتحديد ما قاله الرب يسوع عن نفسه في العهد الجديد مخاطباً اليهود: " قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن(يوحنا8:58)، وفي الإصحاح ذاته يؤكد يسوع هذا المفهوم بقوله: " متى رفعتم إبن الإنسان تعرفون اني " أنا هو".

هذا تماماً ما قاله النبي أشعيا عن الله: " أنتم شهودي يقول الربّ وأنا الله. ومن اليوم انا هو". وهنا يكمن المعنى بكامله، أنا هو الله ولا إله غيري، رب واحد، إله واحد يسوع المسيح المخلص.

ومما لا شك فيه، إدراك هذا الامر وفهمه يتخطى حدود العقل البشري المخلوق وهو ليس بالأمر السهل، فكيف هو الله وكيف هو المتجسد في آن معاً، وما معنى بالتالي كلمة إبن.

أولاً، كلمة إبن الله لا تشكل أية تراتبية في الثالوث القدوس المتساوي في الجوهر، إن من ناحية الأهمية أو من ناحية الوجود، ولكنها تستعمل فقط لتعبّر أن المتجسد والمنظور أي الأبنوم الثاني له نفس الطبيعة الجوهرية الإلهية التي هي للآب والروح، وإنما خصائصه الوظيفية هي أنه تجسد.

ولو لم يكن الله نفسه هو المتجسد لكان خلاصنا ناقص وباطل، فبتجسده هذا صار لله لهماً ورفع الإنسانية إلى العلى.

فنتحقق قولة النبي أشعيا بآيته العظيمة: " يعطيكم السيد نفسه آيةً، ها العذراء تحبل وتلد إبناً وتدعو إسمه عمانوئيل"، أي الله معنا.

وتأتي الترنيمة في سحر عيد الميلاد لتعبّر عما يلهج في قلب المؤمنين فتشدهو قائلةً: "لم تتعجبين يا مريم، ولماذا تتذهلين في داخلك، فتجيب قائلةً، لأنني ولدت في زمن ابناً غير محدود في زمن، وأنا لا أعرف رجلاً، فمن ذا الذي رأى قط ولادةً خلواً من زرع، لكن حيث يشاء الإله، يُغلب نظام الطبيعة كما كتب، المسيح ولد من البتول، في بيت لحم اليهودية".

وإن كان هذا الأمر يشكل لليهود عثرة وللآخرين جهالة، فهو بالمقابل يشكّل للمسيحيين حباً ورحمةً وخلصاً، الله أحبنا حتى الموت وشاركنا في كلّ شيء خلا الخطيئة. وها هو اليوم يدعونا في كل لحظة لتقبل هذا الخلاص، ولنتقدس معه بالنعمة فنهتف مع الملاك قائلين المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي أناس المسرة. هللويا.